القصة الرابعة عشرة ـ دروس رحمة

يارا عماد الناطور

إن الله قد يسخر لك دروساً في هذه الحياة قد تظن بأنها ابتلاءات لتجد أنها في الحقيقة ليست إلا خطوة طبيعية ولكن مرتفعة قليلاً وأنت تصعد سلم حياتك ...قد تظن أن الله نسيك أو عجل لك عقاب ذنب ارتكبته، ولكن سرعان ما يظهر أنه في النهاية درس مهم يرفعك به إلى الأعلى بحسب درجة صبرك وتحملك..

كنت في الماضي إنسانة بائسة أنظر دائمة إلى نصف الكأس الفارغ ، أتذمر من أدق التفاصيل والأشياء التي تصيبني ، يلازمني إحباط من كل شي حولي ، أشياء كنت أرغب بها وأظن أن سعادتي في الحياة متوقفة عليها ولم أستطع تملكها ...ولأني لم أحصل على كمالياتي كنت أشعر بالضيق الدائم.

في أحد الأيام رنّ هاتفي كانت سيدة ترغب في أن أعطي دروساً لطفلتها التي في الصف السادس الابتدائي ..وافقت بشرط أن تأتي الفتاة إلى منزلي ،ولكن الأم قالت: إن ابنتها لا تستطيع ذلك بسبب ظرف خاص ...تساءلت كثيرا في نفسي ـ ماذا قد يكون الظرف وبعد مناقشة وافقت على الذهاب إلى منزلهم ، اتفقنا على الموعد ... ذهبت إلى هناك وكل ما كان يدور في رأسي هل حقاً سأستطيع أن أستمر في هذه الدروس وأنا التي تتذمر من كل شيء روتيني وترفضه ..

حين كنت أقف بباب منزلهم لم أكن أعلم أنني داخل هذا الباب سأجد نفسي- مخبأة داخل قلب تلك الطفلة الصغيرة رحمة ...استقبلتني والدتها بحرارة كانت سيدة في مقتبل عمرها رقيقة تمتلك رقي وأخلاق عالية في الحقيقة سعدت بمقابلتها ..

فُتح باب الغرفة التي كنت أجلس بها ودخلت رحمة أخيراً طفلة تمتلك وجهاً كالبدر..دخلت رحمة وهي تدفع بواسطة يديها الصغيرتين كرسيها المدولب ...لا أعلم مالذي حدث لي في تلك اللحظة لقد شعرت أني أريد البكاء والصراخ بصوت مرتفع جداً أردت أن أحتضنها وأبكي لم أعلم هل أشفقت عليها حقاً أم اشفقت على نفسي في تلك اللحظة ..مدت يدها الصغيرة وسلمت علي كانت تمتلك عينين جميلتين خلابتين ببريق يخترق الصدر و يستقر في القلب ،و أجمل ابتسامة رأتها عيني...تكلمت معها في ذلك اليوم قليلا لأجد أنها فتاة تمتلك عقلا راجحاً لا يمكن أن يكون عقل طفلة مازالت في الحادية عشرة من عمرها، رحمة كانت طفلة جميلة بكل معنى الكلمة شعرت أنها رسالة الله لي الرسالة التي منحني إياها حتى أتمكن من رؤية الحياة من زاوية أخرى زاوية رحمة.

كانت رحمة فتاة مميزة جدا أيضا في المدرسة ذكية وواعية ، ورغم ذلك كان هناك مسحة حزن تظهر في عينها رأيتها جيدا حين اقتربنا من بعضنا. في كل يوم كنت أذهب إلى رحمة كانت علاقتنا تصبح أقوى كنا نرتبط معاً كل يوم أكثر.

ولم تكن علاقة معلمة وطالبة فقط، بل أصبح هناك اتصال روحي لم نعرف لا أنا ولا هي سببه حتى هذه اللحظة... »

وفي أحد الآيام صارحتني رحمة بأنها لن تكمل دراستها وأنها ستكتفي بهذه السنة وبعد ذلك ستجلس في المنزل ...في الحقيقة شعرت بالقهر الشديد تلك اللحظة..تلك الفتاة الرائعة التي حفرت في داخلي أعظم درس في حب الحياة... تلك الفتاة التي أخرجتني من مستنقع الهموم التافهة و غيرت نظرتي وطريقة رؤيتي في الحياة مصابة باليأس ...وفورا ودون أن أفكر قلت لها : هل حقا تقولين ذلك وهل تعتقدين أني سأسمح لك بأن تفعلي ما تقولين ....انسي ذلك حقا، ستدرسين وتكملي تعليمك ستصبحين قدوة لكل الأطفال ..رحمة صغيرتي خلقتِ أنتِ لشيء أسمى مما خلقنا عليه جميعنا خلقت لتضربي أروع الدروس في النجاح والتميز ... لن اسمح لك بذلك حتى لو تطلب الأمر أن آتي كل يوم وأخذك إلى المدرسة وأعيدك بيدي...كانت رحمة تنظر إليّ بعينيها الواسعتين متفاجئة من كلماتي وهي تعلم أني حقاً أقصد ما أقول.

ابتسمت وقتها وشعرت أن ما أردت أن أوصله لها قد وصل .

تغيرت رحمة منذ ذلك اليوم ...كانت تشارك في مسابقات عديدة في المدرسة وتتميز بأدائها ...أصبحت تقرأ كثيراً وترغب في أن تتعلم أكثر عن كل شيء.

قالت لي إنها لن تجعل شيئا يعيدها إلى حزنها ....وهكذا بقيت أنا ورحمة أربعة عشر عاماً لم نفترق أبداً. كان نجاحها وتميزها وتلك الجوائز العلمية التي تحصل عليها تزداد كل يوم أكثر .. وسعادة ودعم والديها وأشقائها لم يتوقف أبداً بل كان داعماً مهماً لها،وكنت سعيدة بها وفخورة جدا وكأنها أصبحت ابنة قلبي أنا ...

والآن بعد أربعة عشرة عاماً على لقائي برحمة، دعتني اليوم لمناقشة رسالة الدكتورة الخاصة بها في مجال العلوم الحيوية ...اليوم رحمة تخط بيديها الصغيرتين الرقيقتين اسمها ضمن أكثر شخصية مؤثرة في العالم غلبت ما يراه الجميع عجزاً وسطرت أروع قصص التحدي والنجاح .

حبيبتي رحمة قد لا أجد كلمة تصف لك فخري وحبي ...نجاحك اليوم هو نجاحي...شكرا لك على كل شيء قدمته لي ولكل من عرفك يوماً ...شكراً لك يا صغيرتي... »

*****